«رياح الخريف» لزهرة الحرّ
ما يبقيه خريف الحياة: إيمان خافق مطمئن

«رياح الخريف» مجموعة شعرية للشاعرة زهرة الحر، صدرت، مؤخَّراً، عن المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، وقد سبق للشاعرة أن أصدرت مجموعتها الشعرية الأولى «قصائد منسية» عام ١٩٧١.

الشِّعر المنسي

الملاحظ أنَّ مدَّة طويلة تفصل بين صدور المجموعتين الشعريتين، وهذا يعني، إضافة إلى ما يفيده تعبير «قصائد منسية»، أنَّ الشعر لم يكن النشاط الأساسي للسيدة الحر، وأنَّ نشره لم يكن همَّاً مؤرِّقاً، وإنَّما كان نظمه أحد اهتماماتها، تعود إليه حين تحسُّ بحاجة إلى ذلك، وتبقي ما تسطِّره في أدراج مكتبها إلى أن يأتي ما يحثُّ على نشره، ومن يسعى إلى ذلك.

السيدة الحر ليست الوحيدة في هذا الأمر، فهو ملاحظ عند معظم الشعراء العامليين، فالشعر، لديهم، ملاذٌ في أوقات يمرُّ فيها البوح إلى الآخر، أو في أوقات يندر فيها وجود هذا الآخر، فيكون القلم، في مثل هذه الأوقات، الفيء الظليل والماء العذب في هجير العيش وبيداء الحياة. ولعلَّنا نقرب من الصواب عندما نقول: إنَّ مثل هذا الشعر هو نبض العيش، وحبذا لو أتيح له من يبحث عنه في الأدراج، فيُخرج إلى الذكر تلك القصائد المنسية.

شاعرة جبل عامل

تشارك السيدة الحر الشعراء العامليين في هذه الصفة، وتتميَّز منهم بصفة على قدر كبير من الأهمية في تاريخ الأدب العاملي. تتمثَّل هذه الميزة في كون

زهرة المرأة الشاعرة في منطقة كان يقول أبناؤها الشعر كما يتنفَّسون الهواء، ولم ينبغ من بينهم، في ميدان الأدب سوى عدد قليل من النساء، من أمثال زينب فواز وسكنة العبدالله.

في آونةٍ مبكِّرة، أنشدت السيدة الحر الشعر (ولدت في صور سنة ١٩١٧، وبدأت نظم الشعر، كما تقول، قبل أن تتمَّ الثالثة عشرة من عمرها)، وحظيت بلقب «شاعرة جبل عامل». ويبدو أنَّها فرضت حضورها في تلك الآونة من الزمن بموهبة وجرأة، وكفاءة مكَّنتها من تحقيق طموحها ومواجهة مجتمعها وقوانين الحريم فيه، كما تقول، والملاحظ أنَّها وجدت، كما تضيف، في الشعر، ما يكمل طموحها الذي حقَّقته في الميادين الأخرى، فهي تقول: «فقد وجدت، ونحن في الثلاثينات، أنَّ لا حاجز ولا عائق يقف بيني وبين اكتمال طموحي بالشعر».

ولعلَّها أحست حاجة إلى تأكيد حضورها في هذا الميدان، ففخرت بموهبتها الشعرية، متَّبعة تقليداً طالما مارسه القدماء والمحدثون، فنسمعها تنشد راسمة حدود طموحها:

شهد الشعر أنَّني كنت فيه نجمة صعبة إليها الطريق

ولا تلبث أن تنال شهادة متذوِّقي الشعر ومقدِّريه، فتقلَّد وسام العمل الفضي، على أثر صدور ديوانها الأول: «قصائد منسية» عام ١٩٧١.

رؤيتها لـــ «النِّسويَّة»

لم يكن الشعر وحده ميدان تجلِّي عطائها، فالحياة العملية كانت أمامها ميداناً رحباً، فسعت فيه سعياً متميِّزاً إلى الريَّادة الحق للتحرُّر وتحقيق الذات وخدمة الأسرة والمجتمع.

فمع توقها «الأنثوي إلى الحياة والحرية والمجد»، كما تقول، كانت «النِّسويَّة»، في رؤيتها سوى ما تراه النظرة السائدة إلى المرأة. ففي عودة إلى مجموعتها الشعرية الأخيرة نلاحظ أنها ترفض أن تكون وردة يُشمُّ عبيرها

ويُطوى حسابها، وتأبى أن تكون كأساً يُشرب ما بها، وتُترك عرضة للذباب، ولا ترضى أن تكون طريدة يؤكل منها وما زاد يبقى طعام الآخرين. ولا يعنيها بشيء أن تكون الجريدة التي يُقرأ فيها ويُرمى بها من تحت درج الكتاب. ولا يطيب لها عيش تكون فيه روضاً يمرح فيه اللاهون، ويُترك بعد ذلك لعويل الذئاب.

من الواضح أنَّ الشاعرة تعدِّد الحالات لتؤكِّد رفضها واقعاً تكون فيه المرأة شيئاً من أشياء الرجل، فمثل هذه المرأة، في رؤيتها، تكون هشيماً، ويكون الرجل المطليُّ ظاهرُه نارها المحرقة، مهما أغراها بزينة وأثواب وحلى. ونسمعها تقول في هذا الصدد:

أنا الهشيم وأنت النار تأكله   فكيف يجتمع الضدَّان في حال!؟

ترفض أن تكون المرأة/ الهشيم المزين المحلي، وترتضي المرأة/ الكائن الإنساني الفاعل في ميداني الأسرة والفعل الاجتماعي المنتج. لأن مثل هذا العمل يجعلها «نجمة صعبة إليها الطريق»، وفق التعبير الذي استخدمته، كما مرَّ بنا آنفاً.

ترى السيدة الحر أنَّ ما يزين المرأة هو الفضل في الفعل والقول، وليس الحلى والثياب المزخرفة، وكأنَّها بهذا تهتدي بقول الإمام علي بن أبي طالب (عليه السَّلام) التالي: «قيمة الإنسان ما يحسنه»، تعيد هذا القول إلى الأذهان مذكِّرة بأنَّ الإمام لم يميِّز بين رجل وامرأة في السعي إلى تحقيق الذَّات وقيمتها، وإنَّما تحدَّث عن الإنسان بعامَّة.

العطاء الحقيقي

في ضوء هذه الرُّؤية العامة، سعت، في دروب الحياة، لتكون هذا الإنسان الذي يحقِّق ذاته بما يحسنه من فضل وأدب وحسن قول وفعل. وكانت، في سعيها، رائدة من روَّاد تحرُّر الإنسان تحرُّراً حقيقياً، فانخرطت في ميدان العمل الاجتماعي بعد أن درست علم التوليد والطب النسائي، وتخرَّجت بامتياز.

ونجحت، أيضاً، في ميدان العمل الأسري، فأنجبت ثمانية أبناء سلَّحتهم بالعلم والثقافة.

ولمَّا كانت مجلِّية في الميدانين، انتُخبت، في العام ١٩٧٥، الأم المثالية عن جنوب لبنان، بمناسبة السنة العالمية للمرأة.

وإذ نعرف هذا كله، يحق لنا أن نسأل: هل يكون العطاء الحقيقي سوى مثل هذه الانجازات في ميداني الحياة الكتابي والعملي؟ ثمَّ ألا يكون هذا العطاء الحقيقي السبيل الوحيدة إلى تكوُّن ما يمكن أن نطلق عليه «نجمة صعبة إليها الطريق».

وإن عدنا إلى مجموعة «رياح الخريف»، وحاولنا معرفة سبب النجاح في الميدانين، فإنَّنا نجد الإجابة واضحة في العديد من الأبيات الشعرية، ومنها:

ـ كلُّ قلبٍ يرتاح بعد خفوق غير قلبي فلم يزل خفَّاقا
ـ ما هبَّت الريح يوماً فوق رايتي ألا سكبت عليها عطر نيسان

تقول السيدة الحر، في رحلة سعيها:

أنا الحصاد، يا دنيا فهاتي منجلي هاتي

رحلة الحصاد

لم تكن رحلة الحصاد سهلة، وإني، إذ أجد ضرورة إلى الإشارة إليها، في هذه القراءة القصيرة، ألجأ إلى المجموعة الأخيرة، فألتقط منها إشارات دالَّة.

كان يحدو بالشاعرة «توق إلى الحياة والحرية والمجد»، كما سبق أن عرفنا، لكن السؤال الأزلي يبقى مقلقاً، يصوغ الشعر هذا السؤال كما يأتي:

فهل أجني، إذا غرست يدي، شيئاً من الغرس؟
وإن ملأت يدي كأساً فهل أشرب من الكأس؟

نلحظ، في هذين البيتين، الإحساس بالأسى ينساب من صوت السِّين المتكرِّر، ولعلَّه يجسد ما كان رفيق رحلة وفيرة الصِّعاب، وقد يكون من

المفيد أن نترك لدروب الحياة أن تجيب عن هذا السؤال.

تهتف هذه الدروب أنَّ زورق الأيام أبحر بصاحبته، وكانت رياحه هوجاً تصفع بلا خجل، وكانت الأقدار قاسية قساوةً تعبِّر عنها قصَّة «الذِّئب والحمل»، لكن أنشودة الأمل بقيت تفتح كوَّة عذبة تمنح الأرض رحمة وسلاماً، وتنير النُّهى، وتعيد القلوب بيضاء كالثلج، فتغدو الحياة حلماً جميلاً.

وتكون رحلة القلوب البيضاءإلى الحلم الجميل قاسية في دروب أرض وعت الشاعرة حقيقتها، وعانت الظمأ، ورنت إلى شربةٍ تطفئه، فقالت:

إسقني شربة ماء من ينابيع السماء

هذه الأرض التي أحيا عليها دون ماء

ليس فيها غير أوحال وأنهار دماء

إسقني شربة ماء ما بها أي وباء

أنا ظمأى، ومياه الأرض تجري من ورائي

ولغت فيها كلاب الحي، وامتصت دمائي

لم تكن وحدها الظمأى، فالأرض تشاركها ذلك، وتشاركها السؤال عن مصير ثرواتها. فتسأل الشاعرة على لسان الأرض:

أيُّ كنزٍ لم يحتكره قوي   من كنوزي ويحرم الضعفاء

إن تكن هذه الأبيات تجسِّد رؤيتها إلى طبيعة الحياة ومصير الثروات، فإنَّ شخصية ثائرة من شخصيات التاريخ العربي الإسلامي تكمل هذه الرؤية بما تمثِّله من قيم وسعي إلى تحقيقها. هذه الشخصية هي الثائر العربي المسلم أبو ذر الغفاري في خروجه على الانحراف. لكنَّ الأقوياء ينجحون في التخلُّص منه، فتقرِّر الشَّاعرة حقيقة ترافق الثورات في بعض مراحلها. فتقول: إنَّ في المنفى خلاصاً من تلاميذ محمد. هذه هي الدنيا: طبيعة عيش ومصير ثروات وثوار.

يحتاج كل من يريد النجاح في سلوك دروبها أن يمتلك قوة تمكِّنه من

ذلك، وقد وجدت الشاعرة هذه القوة في وعيها دورها أمَّاً، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من قدرات عطاء. وهكذا نجد أنَّ الشاعرة تبقى، في الحالات جميعها، الأم المثالية التي تظلُّ مولية هذه الدنيا حبها، تريد منها أن تعطيها منجلها فحسب. فنسمعها تقول:

قلت للدنيا، وقد أوليتها كلَّ حبِّي، يا ترى ما الخبر؟
فمضت تصفعني في شدَّة وتشبَّثت بها أعتذر

تصفعها الدنيا بحقيقتها، وكأنَّها تقول لها:

تأكل الناس بعضها البعض غنماً فاغنم العيش بين ظفر وناب

وترتضي أن تضمَّ العيش بين ظفر وناب، متَّخذة قرارها الواضح:

ليس لي أن أقول: ويح حياتي كل قول ضد الحياة عقوق

تقبل على الحياة بقلب دائم الخفقان، دائم الغفران، لا يقسو على أحد، طبيعتها الأساس الأم، فتخاطب السماء بلسان «الأرض/الأم. فتقول:

يا سماء الجنان ما زلت أمَّاً أي أمٍّ لا ترحم الأبناء
فامنحينا السلام والحب والخير لنحيا على المدى سعداء
ونعيد الحياة حلماً جميلاً ونحيل الصحراء ظلّاً وماء

في جهد يسعى إلى تحقيق حلم جميل يحيل الصحراء ظلاً وماء، يبحر بها زورق الأيام إلى أن تقبل رياح الخريف. فتجده مطمئناً إلى ما أنجزه، وإلى إيمان عميق يخاطب الرياح الآتية بقوله:

يا خريف الحياة لم يبق منِّي غير إيمانٍ خافق مطمئن

هذا الإيمان الخافق المطمئن يختلف عن العجز والاستسلام، إنه نبض العيش الكريم الرائي إلى نمط من الحياة خطَّه سيد الشهداء. فنسمعها تقول متحدِّثة عن مثل هذا العيش:

إن نعش فلنعش كراماً وإلَّا فلنمت ميتة الحسين الأبي

❐❐❐